# الفن البيزنطي

**تمهيد**

و هو فن الإمبراطورية البيزنطية الذي إزدهر ما بين القرن السادس الميلادي و سنة 1456 م تاريخ سقوط مدينة القسطنطينية العاصمة في يد الأتراك العثمانيين. و شمل منطقة جغرافية واسعة تشمل أغلب مناطق البحر الأبيض المتوسط، و إرمينيا و منطقة البلقان و روسيا، و استمر اشعاعها في بعض المناطق المجاورة لها حتى بعد سقوط القسطنطينية. و يمكن تقسيمها إلى عدة مراحل تاريخية.

**عموميات حول الفن البيزنطي**

الفن البيزنطي فنا دينيا و ملكيا، كان في خدمة الكنيسة الشرقية الأورثودوكسية، و في خدمة الإمبراطور ممثل الرب على الأرض. و إذا كانت العبادة المسيحية في الغرب تعتمد على تقديس بقايا القديسين (les reliques)، فإن العبادة المسيحية في الشرق تعتمد على تقديس الأيقونات.

استمد الفن البزنطي جذوره من التقاليد الفنية الهيلينية القديمة التي كانت منتشرة في المنطقة الشرقية من حوض البحر الأبيض المتوسط، غير ان البيزنطيين ابتعدوا عن التوجه الواقعي و التجسيم الذي كان يميز الفن الهيليني، و توجهوا نحو النظرة الفلسفية التأملية التي تميز معتقدات الكنيسة الشرقية، و حاول الفنان اليزنطي تمثيل و إظهار الخصائص الروحية للقديسين. و بما أن رسومات الإيقونات و لوحات الفسيفساء لم تكن تعتمد على البشر كنماذج في إنجازها، فهي بعيدة عن تمثيل الأجسام البشرية كما هي في الواقع، و من ذلك المنطلق اختفى نحت التماثيل من الفن البيزنطي منذ القرن الخامس الميلادي. و أقتصر النحت على النحت البارز على لوحات من العاج تسمى « diptyque » تنقش عليها مواضيع دينية. كما تميز الفن البيزنطي بازدهار فن الإيقونات، و الفسيفساء و التي تبتعد عن التجسيم.

**العمارة البيزنطية**

**الفترة المبكرة (القرن الخامس– القرن الثامن)**

شهدت المرحلة المبكرة أي ما بين القرنين الخامس و الثامن العديد من انماط الكنائس و التي ينمكن تصنيفها إلى مجموعتين: الكنائس ذات التخطيط البازيليكي، و الكنائس ذات القبة المركزية التي كانت الغالبة في هذه الفترة، و أهم مثال على الكنائس ذات القبة المركزية، كنيسة أيا صوفيا « Hagia Sofia ».

في الحقيقة بنيت اول كنيسة مسيحية أيا صوفيا (الحكمة الألهية) سنة 330 من طرف الإمبراطور الروماني قسطنطين عند اعتناقه للمسيحية، و كانت ذات تخطيط بازيليكي، و قد بينت على ربوة تشرف على بحر مرمرة، و كانت اكبر كنيسة بالمدينة حيث كان يطلق عليها اسم " الكنيسة الكبرى" و يعتقد انها كانت مبنية بالحجارة و سقفها بالخشب، و قد دمرها حريق خلال اضطرابات شهدتها المدينة سنة 404 م، و أعاد بنائها الإمبراطور تيودوز الثاني سنة 415 م، و كانت ذات تخطيط بازيليكي أيضا، و قد عرفت نفس مصير سابقتها حيث دمرها حريق سنة 532 م. أما الكنيسة الحالية فقد شيدت من طرف الإمبراطور جوستنيانوس ما بين سنتي 532 و 537 م.

تتخذ كنيسة أيا صوفيا، شكل مستطيل توجيهه شرق غرب (صورة رقم 01، شكل رقم 01)، يتقدمها ساحة من الجهة الغربية، و تنتهي بحنية نصف دائرية (abside) من الجهة الشرقية. أما تخطيطها الداخلي فهو معقد نوعا ما.



PDF Creator Trial

صورة رقم 01: منظر جوي لكنيسة أيا صوفيا

فهي تتكون من ثلاثة أروقة أو بلاطات، بلاطة مركزية واسعة، و بلاطتين جانبيتين ضيقتين. لبلاطة أو الرواق المركزي (la nef centrale )، يبلغ طولها 73.5م و عرضها 69.5 م، تغطيها قبة ضخمة يبلغ قطرها 31.24 م و ارتفاعها 56 م، ترتكز على أربعة مثلثات كروية (pendentifs) تسمح بالانتقال من المساحة المربعة التي تغطيها القبة إلى المساحة المثمنة التي تقوم عليها القبة (شكل رقم 02)، كما تسمح هذه المثلثات الكروية بتوزيع و نقل ثقل القبة إلى أربعة ركائز ضخمة في الأركان الأربعة لهذه المساحة ، كما ترتكز هذه القبة من الجهتين الشرقية و الغربية على نصف قبة تساهم في توزيع ثقل القبة من الجهتين الشرقية و الغربية (صورة رقم 01)، أما على الجهتين الشمالية و الغربية، فنهاك جدار عال ينتهي بعقد ضخم و تتخللها العديد من النوافذ ذات عقود (صورة رقم 02). هذا التصميم يشكل نقطة ضعف و الخلل في هذا البنا، و ادى إلى انهيار القبة في عدة مناسبات، و قد تفطن الأتراك العثمانيين إلى ذلك فقاموا ببناء دعامات ضخمة من الخارج لتدعيم تلك الجدران يمكن رؤيتها في الوقت الحاضر و هذا ما سمح من الحفاظ عليها.

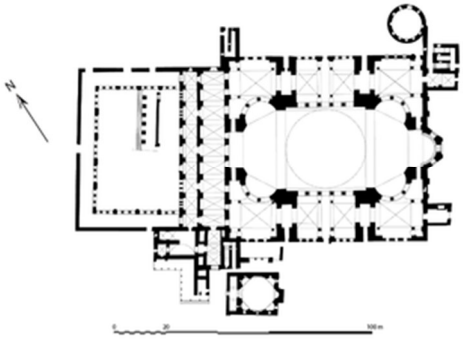

شكل رقم 01 : مخطط كنيسة أيا صوفيا

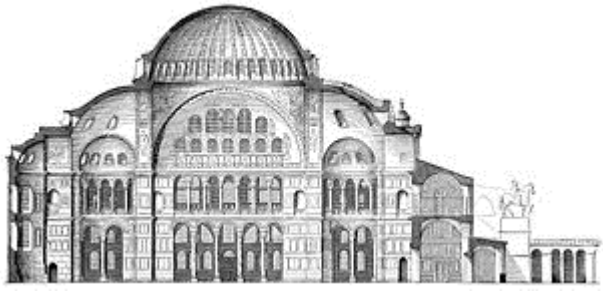

شكل رقم 02 : مخطط طولي لكنيسة أيا صوفيا



PDF Creator Trial

من الجهة الغربية للكنيسة كانت هناك مساحة ذات روفق معمد، ثم المدخل الرئيسي (narthex ) مكون من رواقين، و تغطيهما أقبية متقاطعة، و من الجهة الشمالية للرواق الثاني يوجد ممر يسمح بالانتقال إلى الرواقين العلوين اللذان يطلان على البلاطة المركزية.

صورة رقم 02 : منظر داخلي من كنيسة أيا صوفيا

من الجهة الداخلية، و على جانبي البلاطة المركزية التي تغطيها القبة المركزية، رواق ضيق يقوم على أعمدة رخامية ضخمة يبلغ ارتفاعها حوالي 20 م، و قطرها 1.50 م، تحمل رواق علوي يطل على البلاطة الوسطى.

استعملت في بناء الكنيسة بالأجر، و تمت كسوة كل المساحات الداخلية بلوحات من الرخام الملون و الفسيفساء، أما الجدران الخارجية فتمت كسوتها بالجص. و استعملت في بناءها العديد من المواد المجلوبة من معالم معمارية قديمة، منها الأعمدة و اللوحات الرخامية التي تبلط الأرضية و تكسو الجدران. و قد إندثرت الفسيفساء الأصلية و لم يتبق منها سوى بعض اللوحات التي ترجع إلى القرن الثامن و القرن الثاني عشر أنجزت خلال عمليات الترميم التي شهدتها الكنيسة.

من أهم الأمثلة عن الكنائس البيزينطية ذات القبة المركزية، نذكر كنيسة سان فيتالي (saint vitalé) بمدينة رفينا بإيطاليا و قد شيدت ما بين سنة 526 و 548 م، و هي ذات تخطيط مثمن (صورة رقم 03، شكل رقم 03)، حيث أنها تتكون من رواق مثمن، تحده عقود تقوم على أعمدة رخامية، و تغطيه أقبية متقاطعة، بينما المساحة المركزية، تغطيها نصف دائرية، و اهم ما يميز هذه الكنيسة هي لوحات الفسيفساء التي تكسوا جدرانها و أقبيتها و قبتها.



PDF Creator Trial

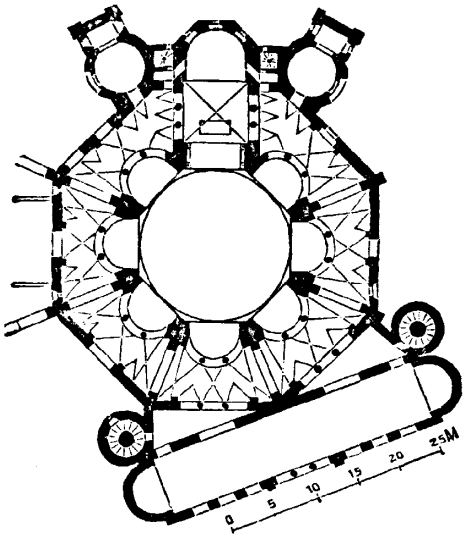


شكل رقم 03 : مخطط كنيسة سان فيتالي برفينا

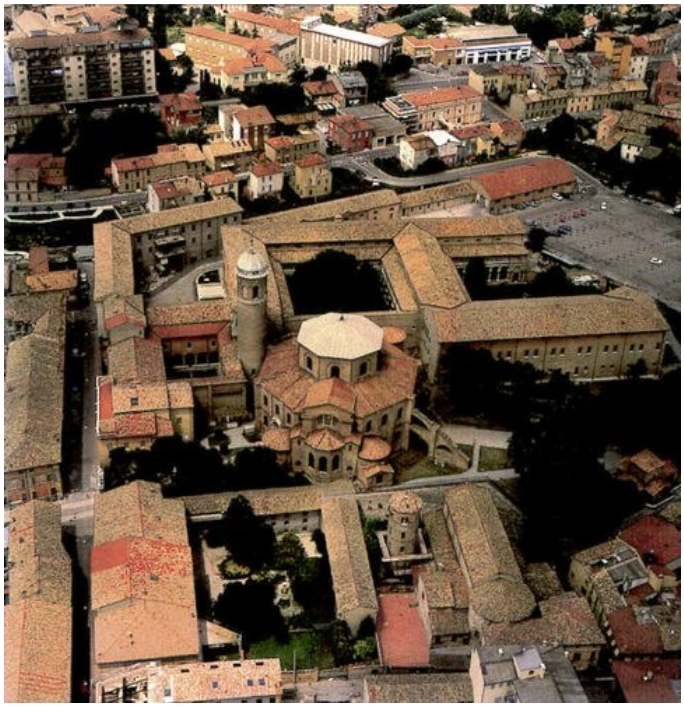

صورة رقم 03 : منظر جوى لكنيسة سان فيتالى برفينا

أما الكنائس ذات التخطيط البزيليكي، و صلتنا العديد منها، فهي تتخذ الشكل المستطيل، و المكون من بلاطة مركزية واسعة (nef centrale) ، و تحدها على الجانبين صف من الأعمدة تحمل عقود نصف دائرية، و تنتهي هذه البلاطة بحنية نصف دائرية (abside) و تغطيها سقف ذو منحدرين من الخشب، نذكر منها كنيسة سانت أبولينار بمدينة رفينا بإيطاليا (صورة رقم 04).

صورة رقم 04 : منظر داخلي لكنيسة سان أبولينار برفينا



PDF Creator Trial

**الفترة المتوسطة ( القرن الثامن– القرن الثالث عشر).**

خلال هذه الفترة ترسخت نهائيا مباديء الفن البيزنطي بما يتوافق مع مراسيم و طقوس الكنيسة الأرثدوكسية ، و بشكل خاص الكنائس التي تعتمد تخطيطها على القبة المركزية. و أصبحت الكنائس تعتمد على تخطيط يتبع شكل الصليب الإغريقي، فهي تتكون من مساحة مركزية مربعة تغطيها قبة صغيرة نوعا ما، و منها تتفرع أربعة أروقة متساوية تشكل الأضلاع الأربعة للصليب.

**الفترة المتأخرة ( القرن الثالث عشر– القرن الخامس عشر)**

تبع تخطيط الكنائس خلال هذه الفترة نفس تخطيط كنائس المرحلة السابقة، لكنها أصبحت في غالب الأحيان تغطيها خمسة قباب صغيرة، قبة مركزية و قبة فوق كل رواق، كما أن هذه القباب تقوم على قاعدة عالية (tambour) مثمنة الشكل ، أما القباب في حد ذاتها فهي صغيرة و تكاد تكون مسطحة (صورة رقم 05، شكل رقم 04).

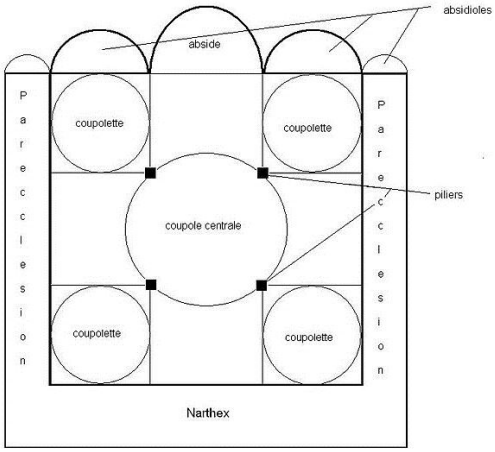


شكل رقم 04 : مخطط كنيسة بيزنطية (القرن XIII–XV )

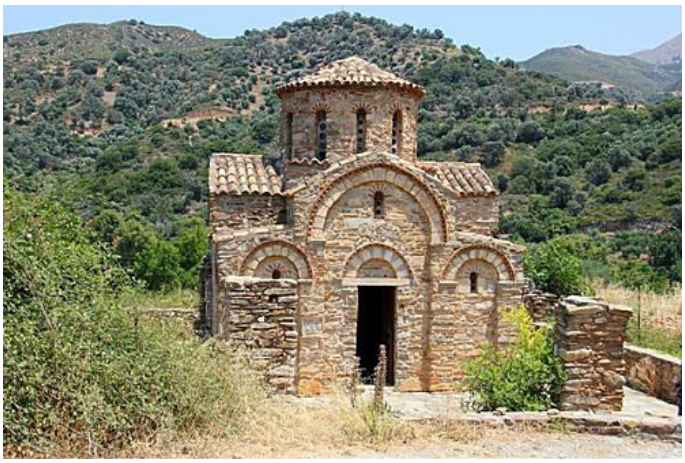

صورة رقم 05 : نموذج لكنيسة بيزنطية (القرن XIII–XV )

**الزخرفة المعمارية**

**الفسفساء**

كانت الفسيفساء المادة المفضلة عند البيزنطيين لتزيين كنائسهم من الداخل، حيث كانت تكسو سطح الجدران، القباب و الأقبية، و هي تتكون من قطع صغيرة متعددة الألوان و بعضها تغطيها أوراق من الذهب، مما يضفي على تلك المباني مسحة من النور و يبرز مدى رخاء و رفاهية الإمبراطورية.

عرف فن الفسيفساء البيزنطية ازدهارا كبيرا بداية من عهد جوستينيانوس، و أهم النماذج عن فسيفساء القرن السادس نجده بكنيسة سان فيتالي بمدينة رفينا بإيطاليا (basilique de saint vitale à Ravenne)، و التي انجزت في سنة 547 م. (صورة رقم 06) استعملت في هذه الكنيسة عدة أساليب تتناسب و المواضيع الممثلة، استعمل الأسلوب الروائي لتمثيل المواضيع المستمدة من الإنجيل، بأسلوب يشبه الرسومات الرومانية بمدينة بومبي، كما يظهر التأثير الهيلينيستي في تمثيل المسيح بشكل شاب بدون لحية يشبه الاله أبولو (صورة رقم 07) ، كما يظهر التأثير الشرقي في مشهد موكب الشهداء بكنيسة سان أبولينار نويفو (sant apollinare nuevo) بمدينة رفينا، و التي تذكرنا بمواكب الزوار بقصر برسيبوليس.



PDF Creator Trial

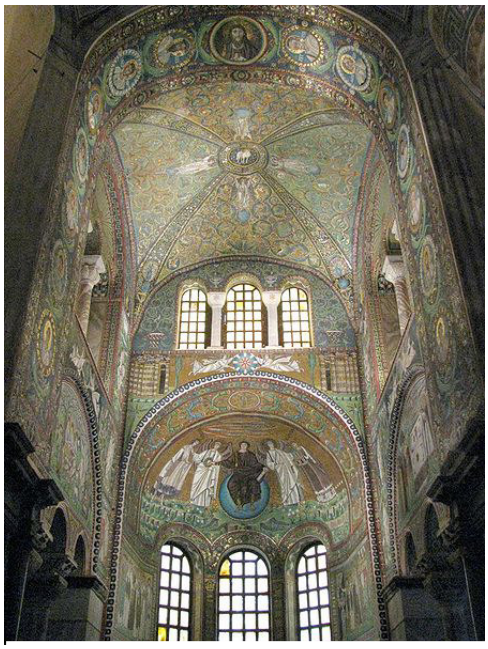

صورة رقم 06 : فسيفساء كنيسة سان فيتالي،

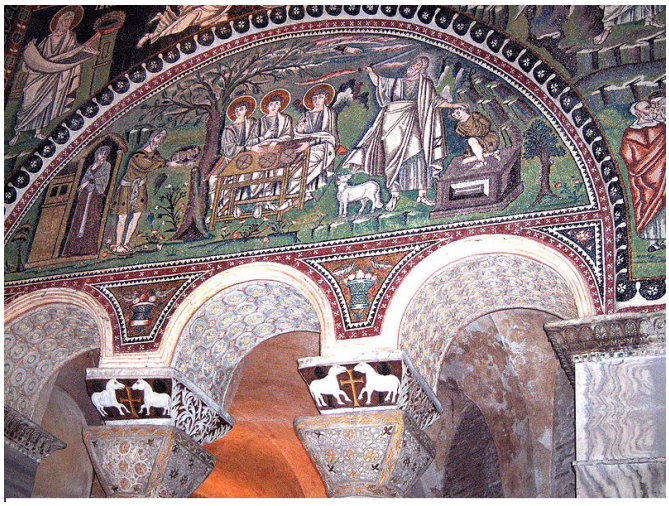

صورة رقم 07: مشهد النبي ابراهيم يلم بذبح ابنه بالأسلوب الهيلينيستي

كما ظهرت خلال هذه الفترة في كنيسة سان فيتالي بعض المشاهد التي اصبحت كلاسيكية في الفن المسيحي، أبرزها مشهد المسيح على هيئته الإلهية (transfuguration) (صورة رقم 08) أو مشهد المسيح جالسا فوق تابوت. كما نشاهد على جانبي الحنية المركزية لوحتين متقابلتين، الأولى تمثل الإمبراطور جوستينيانوس و على جانبيه أفراد حاشيته، تقابلها لوحة أخرى تشبهها في تصميمها تمثل الإمبراطورة تيودورا وسط حاشيتها، الامبراطور و زوجته يحملان على رأسهما تاج و يلبسان العباءة الملكية بنفسجية اللون، و يظهر على جوستينيانوس الهيبة و الوقار باعتباره ممثل المسيح على الأرض (صورة رقم 09 و 10).

صورة رقم 07: مشهد المسيح على عرشه محاط بالملائكة



PDF Creator Trial

صورة رقم 09: لوحة فسيفساء للإمبراطور جوستينيانوس

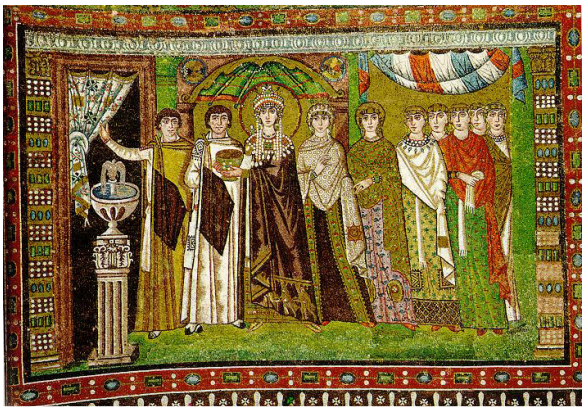

صورة رقم 10: لوحة فسيفساء للإمبراطورة تيودورا

و تتميز الفسيفساء البيزنطية بألوانها الغنية و كأنها جواهر ثمينة، مما يدل على ثراء و غنى الإمبراطورية التي يتزعمها الإمبراطور سيد الكنيسة الأرثوذكسية و ممثل المسيح على الأرض. و اهم تلك الألوان الأخضر للأرضيات و اللون الذهبي خاصة كخلفية للمسيح و المشاهد التي بها المسيح و مريم العذراء، و تساهم الفسيفساء المذهبة في إعطاء هالة من النور على المباني البيزنطية كرمز للنور الذي ينشره المسيح.

شهدت الإمبراطورية ما بين 730 و 843 م تحريم تمثيل المسيح و المشاهد الدينية و هي الفترة تسمى تحريم الأيقونات (l'iconoclasme) و أصبح تزيين الكنائس يقتصر على الصلبان فقط. و بعد فشل هذه الثورة، اصبحت الكنائس تزين كما كان الحال من قبل بصور المسيح و المشاهد الدينية المستمدة من الإنجيل. و بلغ فن الفسيفساء البيزنطي ازهى عصوره، و اصبحت المواضيع المستعملة تتبع قواعد صارمة، تعتمد على الترتيب حسب اهميتها. فالقديسين الثانويين يمثلون في الأماكن السفلية من الكنيسة، بينما الأجزاء المهمة من الجدران، فهي مزينة بمواضيع مستمدة من الإنجيل و مشاهد من حياة مريم العذراء. أما الأقبية فهي مزينة بموضوع صعود المسيح إلى السماء، و مشهد هبوط "الروح القدس" على المسيح و الحواريين على هيئة أشعة من النور. اما الحنية النصف دائرية(l'abside) فهي مزينة بمشهد العذراء جالسة على العرش و تحمل المسيح طفلا (صورة رقم 11).

صورة رقم 11 : مريم العذراء تحمل المسيح على ركبتيها



PDF Creator Trial

غير أن أهم مكان في الكنيسة و هو القبة التي ترمز إلى السماء فقد أصبحت تزين دائما بالسيد المسيح سيد الكون (le pantocrator) ملتحي ينظر إلى الخليقة (صورة رقم 12).

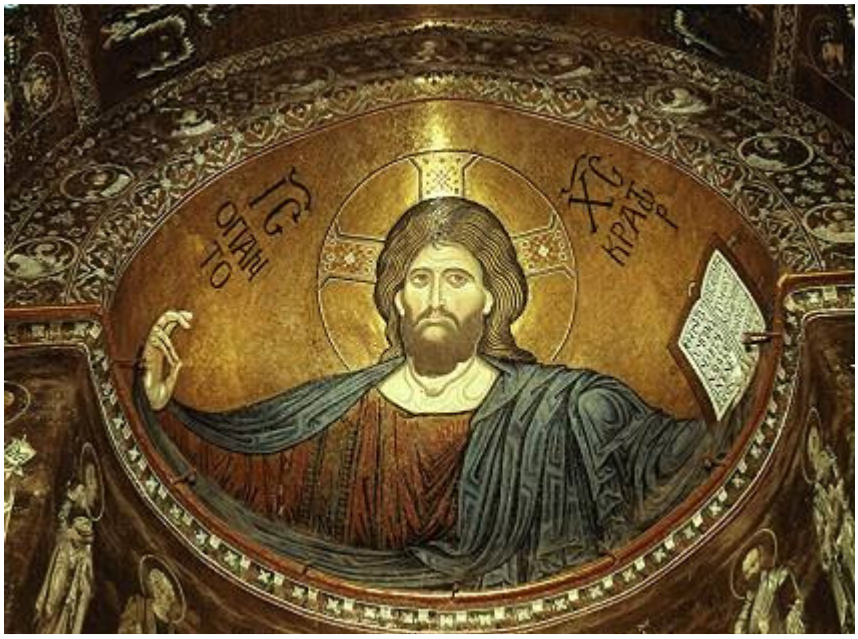

صورة رقم 12 : فسيفساء المسيح سيد الكون (Pantocrator) من الفسيفساء

**الرسم الجداري (les fresques)**

بداية من النصف الثاني من القرن الثاني عشر ميلادي، تخلى البيزنطيون على استعمال الفسيفساء لتزيين الكنائس و عوضوها باستعمال تقنية الرسم بالألوان (les fresques)، و الذي كانت تزين كل المساحات الداخلية للكنائس : الجدران، الركائز، الأقبية و القباب. صاحب استعمال الرسم التخلي على القواعد التي كانت متبعة في ترتيب المواضيع التي كانت مستعملة في الفسيفساء، كما أصبحت الشخصيات الممثلة اقل حجما، مع إعطاء اهمية اكبر للمناظر الطبيعية و المباني التي تشكل الخلفيات. كما أصبحت المواضيع الروائية المستمدة من الإنجيل ممثلة على جميع جدران الكنائس و حتى على الأقبية، غير أن اهم ما يميز الرسم الجداري البيزنطي هو أسلوب الرسم و إن كان يشبه نوع ما أسلوب تمثيل المواضيع التي كانت مستعملة بتقنية الفسيفساء، فهي تتميز أساسا ابتعادها عن المنظور او البعد الثالث بل يكون الرسم مسطحا، فالرسام البيزنطي لم يكن هدفه محاكاة الطبيعة و رسم الكائنات الحية و بشكل خاص الأشخاص كما هم في الواقع و إنما كان يهدف إلى رسم الكائنات الحية من إنسان و نبات خالية تماما من الروح تبعا للمعتقدات الأرثودوكسية(صورة رقم 12).



PDF Creator Trial

صورة رقم 12 : نموذج من الرسم الجداري البيزنطي

.

**فن الايقونات (les icones)**

يعتبر فن الايقونات أبرز الفنون البيزنطية على الاطلاق، و هي عبارة عن رسومات تتم على لوحات خشبية لشخصيات دينية مسيحية أهمها المسيح ، مريم العذراء تحمل المسيح، القصص المستمدة من الانجيل و قصص القديسين. و قد ازدهر هذا الفن في عهد الإمبراطورية البيزنطية و تعدى حدودها لتنتشر في مناطق واسعة من شرق أوروبا و في روسيا و أصبحت محل تقديس لدى المسيحيين الأرثوذكس. و إذا كانت في شكلها العام تتبع نفس التقاليد التي استعملت في الفسيفساء و في الرسم الجداري في الكنائس، فقد فرضت عليها الكنيسة الأرثودوكسية منذ القرن السادس الميلادي قوانين صارمة في رسمها، و في اختيار المواضيع و الألوان و طريقة تمثيل المواضيع و الشخصيات ذات التعابير الصارمة و الابتعاد عن التجسيد (صورة رقم 13)، بحيث لا تبدو تفاصيل جسم الإنسان. و لا تزال تلك القوانين سارية إلى يومنا هذا مما جعل فن الأيقونات يحافظ على خصائصه إلى يومنا هذا خاصة في روسيا و اليونان و شرق أوروبا.

صورة رقم 13 : إيقونة بيزنطية تمثل مريم العذراء تحمل المسيح في ذراعيها



PDF Creator Trial